

سيمائية العنوان في فيلم أبواب الصمت لعمار العسكري

بوزيد قاسم

جامعة قسنطينة 3

الملخص:

نتناول من خلال هذه الورقة دراسة سيميائية العنوان ذلك بالتركيز على فيلم أبواب الصمت لعمار العسكري كأ نموذج أبدى فيه كثيرا من التجديد، أين حاول المساهمة في تأسيس أرضية لنمط جديد من الأفلام التي كسرت الطابوهات في المجتمع الجزائري في علاقته بفرنسا الاستعمارية وهذا ما سيستدعي - حتما - الاستعانة بمناهج حديثة لمقاربة هذا النص الدرامي السينمائي، و لهذا سنستخدم المنهج السيميائي، الذي كثيرا ما نعت بأنه منهج نصي، و في ضوئه سنحاول استنطاق عنوان الفيلم؛ على اعتبار أن علم السيمياء اهتم بالعنوان، لمساهمته هو الآخر في كشف مفاتيح النص

تمهيد:

يعتبر كثير من النقاد أنّ العنوان من أهم العوامل المساهمة في نجاح العمل الدرامي السينمائي ، فهو يقوم في كثير من الأحيان بالوظيفة الإغرائية اتجاه المتلقي، فقد يكون سببا في شيوع العمل الإبداعي وانتشاره، أو يكون وبلا على صاحبه؛ وانطلاقا من هذا التوجه أولى السيميائيون أهمية خاصة له فهو (أكبر من النص إذ له الصدارة وبرز متميزا بشكله وحجمه)¹ وهو كما يزعم جاك فونتاني (العنوان مع علامات أخرى من أقسام النادرة في النص

التي تظهر على الغلاف، وهو نص مواز)² بل إنّ له القدرة على مسار تلقي النص لدى القارئ أو المشاه

العنوان إذن كما تذهب إليه بشرى البستاني (رسالة لغوية تعرف بتلك الهوية وتحدد مضمونها تجذب القارئ وتغريه بقراءتها، فهو الظاهر الذي يحدد باطن النص ومحتواه)³

(فأي قراءة استكشافية لابد أن تنطلق من العنوان كونه ليس زائدة لغوية يمكن استئصالها من جسد النص)⁴

وأما رولان بارت فقد نظر إلى العنوان على أنه نظام سيميولوجي يحمل في طياته قيما أخلاقية واجتماعية وايدولوجية)⁵

فرغم هذه المقاربات المتعددة فإنّ الجامع بينها واحد هو أنّ العنوان رمز دال على مدلول سواء أكان فيلما سينمائيا أو كتابا، إنّه (يتصدر مايدل عليه ويميزه عن غيره ويفصله ويحدّد كيانه المستقل)⁶. هذا الأمر يحيلنا إلى وظائف العنوان المتعددة والمرتبطة بأطراف عملية الارسال (مرسل - رساله - مرسل إليه) فإن كان العنوان رسالة يغدو الأمر على النحو التالي: معنون - عنوان - معنون إليه.

وظائف العنوان:

المبدع في الحسبان ذوق المتلقي... فإنه يميل إلى أقرب العناوين إلى نفسية المتلقي ليستميله إلى كتابه/نصه رغبة منه في انتشاره و تداوله¹⁰

قراءة في العنوان "أبواب الصمت":

يؤسس هذا العنوان لمثول عاطفي عند المتلقي حين يزوج بين لحظة القداسة (الصمت بمدلوله الإيجابي) ولحظة الدناسة (الصمت بمدلوله السلبي عند التنكر للتضحيات)، وبين لحظة الضياء ولحظة الظلام، وبقدر ماهو مثول تعارضي فإنه يقوم بتدوير الحدود الفاصلة بين ماهو مقدس وما هو مدنس، إذ يتضح ألا وجود لسلطة معيارية تصنيفية لأن التصنيف ممارسة استيعادية اقصادية إمبريالية مهما ادعت من تنظيم نظرا لاختلاف مرجعيات ورؤى وتصورات المتلقي ونظرا لعدم ثبوتية خطاب الحقيقة وابتلائه بالنسبية التي تتركز على الانتقاء اللغوي وعلى الممارسة الخطابية التخيلية.

إذن فالصمت هنا يتحدى تموضعاته المركزية: الخطائية والواقعية معا (سواء ما ورد على سبيل المدح أو ماورد على سبيل الذم والانتقاص)، ليؤسس وجودا انتقائيا هامشيا هو من صميم انشغالات الذات التي تحاول العثور على معياريتها الخاصة دون الاحتكام إلى أي سلطة مرجعية تشوه الحقيقة، فما صمت إلا ماهو قابع في المسافات البوحية المعتمدة حيث يأبى التوضع اللغوي المؤسساتي، ولا أبواب إلا ما كان ثورة على التوصيف الثابت والأحكام الجاهزة، لذلك يمكن القول أن هذا العنوان حاول مجاوزة المعيارية الموروثة الثابتة بعد الثورة عليها وتقديم بديل لغوي يأبى التصنيف، إنه محاولة تقدم قيمة جديدة مهدمة

يعد لوي هوك أبرز النقاد الذين حاولوا التأسيس للعنوان، ولأجل ذلك راح يحدد هذه الوظائف من خلال علاقة العنوان بالنص وعلاقته بالمتلقي ونوردها في إيجاز على النحو التالي:

الوظيفة التعينية:

وتكون بين الكاتب و النص أين يستوجب على المؤلف (عنونة إبداعه كي يحدد به نصه وبين انتمائه حتى يتداوله القارئ، فبواسطة العنوان يميز بين مؤلف ومؤلف آخر)⁷

الوظيفة الوصفية:

تكون بين النص و العنوان وهنا نورد قول عبد القادر رحيم في كتابه علم العنونة (يسعى العنوان عبرها إلى تحقيق أكبر قدر من المردودية، وهو ما يجعلها المسؤولة عن الانتقادات الموجهة إلى العنوان والصادرة عن المبدعين و المنظرين الذين يبدون انزعاجهم أمام التأثير الذي يمارسه العنوان عند تلقي النص بفعل وخاصيته التثقيفية الموجهة إلى القارئ)⁸

الوظيفة الإغرائية:

بين القارئ والنص المعنون؛ فإنّ المتلقي يجد نوعا من الدهشة منذ اطلالته الأولى على العنوان فيكتشف أنّها دهشة في محلها من حيث هي تتركز على أسس متينة وجمالية وإبداعية ترنو نحو التجديد والابتكار للغة وإيقاع و صورة ذهنية... ففي أحيان كثيرة نرى الدهشة كانت مفتعلة)⁹؛ وقصد إثارة المتلقي فإنّ (أي عنوان يضع

القيميات البائدة التي قدمت تفسيرات للحقيقة اللغوية/الواقعية سببت حروب الكلام ومن ثمة حروب الواقع

سيمياء العنوان:

تولي الدراسات السيميائية اهتماما كبيرا للعنوان، من منظور أنه عنصر إشاري دال على النص الدرامي، كما يعد مؤشرا على الموضوع و يعمل على تعيين النص.

هذا الأمر يجعل منه - أي العنوان - علامة تحيل على صاحبها، و بهذا يصبح العنوان معرّفا بصاحبه و علامة عليه، فبمجرد ذكرنا لعنوان "أبواب الصمت" إلا و تكون الإحالة على شخص "عمار العسكري"، فالعنوان إذا عتبة نصية أولى تستوقف القارئ قبل ولوجه إلى عالم النص الدرامي، وهو عالم أول يطل على المتلقي.

وإذا كانت الأيقونة أجود أنواع العلامة فإن العنوان يعد أيقونا من حيث أنه يمثل تصورا أوليا، ومن خلال ذلك «يتمكن من تحديد هوية النص و وظائفه المتمثلة في التعيين والإشارة إلى المحتوى ثم إغواء المتلقي»¹¹، فعلى هذا الأساس يقوم العنوان بتحديد نوعية النصوص.

والعنوان من خلال انفراده بالصفحة الأولى وبنوع الخاصية الخطية التي كتب بها، سيصبح إشارة خاصة تعمل على تحفيز المتلقي كي يغوص في مضمون ما يخفيه ويؤدّ فيه رغبة لتأويله واستنادا إلى ذلك يصبح العنوان عنصر إثارة وتشويق، يعمل بطريقة عمودية Vertical متجاوزا الجانب السطحي وهو سطح إلى ما هو عميق عمق النص الدرامي؛ فالنص المخصوص بالبحث "أبواب الصمت" يدعو المتلقي إلى طرح تساؤل أولي من خلال تعامله مع الغلاف: ماذا يقصد بأبواب الصمت؟ فمن الناحية اللغوية الباب رمز للبيت ودلالة على الاحترام (اتوا البيوت من أبوابها)، كما

يحمل في طياته دلالة الحركية وأما الصمت هو الهدوء الدال على الرزانة، لكنه قد يدل على المخفي والمستتر المبحوث عنه أو المغيّب عمدا؛ وعلى عكس حركية الأبواب فالصمت قد يدل على اللاحركية والجمود فكيف يمكن لنا الجمع إذن بين ما لا يجمع؟

ثم أي نوع من المغامرات التي يقوم بها الصمت حتى يحظى بكل هذا الانتباه؟ وما علاقة الأبواب به؟ وهل وظف الصمت بمعناه الأصلي أم بالمعنى المجازي؟، كل هذه التساؤلات تلقى بضلالتها على المتلقي، و تجعله يسعى إلى عملية تأويلية مسبقة وبهذا يصبح «العنوان علامة دالة على النص»¹².

هذه الأسئلة وغيرها سيحجب عنها الفيلم، بعد أن أجاب العنوان عن جانب خاص متعلق بمغامرات "الصمت" الدال على شخصية البكوش والذي تميز بذكاء خارق، وظفه بطريقة خاصة فيها الكثير من الخبث قصد تحقيق مصالح تبدو شخصية بحتة لكنها كانت في المقام الأول في خدمة القضية، لكن النتيجة كانت خروجه خائبا بعد أن وجد لنفسه وسيلة استخدمت ولكن استوجب إزالتها لأنها حملت علاقة تبدو لا أخلاقية بين البكوش وزوجة القائد الفرنسي، و هذا مربط الفرس فالفرنسيون يرفضون أي علاقة مع الجزائر في نطاقها الشرعي الانساني لكن بعيدا عن العلاقة الرسمية و في الخفاء كل شيء مباح ولو على حساب العرض و كأننا نتعامل مع بالرمزية في العلاقات الثنائية، الأمر نفسه عند الجزائريين من خلال الرفض ولكن بطريقة أكثر راديكالية ترفض التضحية إن كانت بعيدة عن المعيار الأخلاقي و الاجتماعي، وهذه ملفات وجب فتحها وكسر

أبواب الصمت فيها لأنّ الكثير من الأحداث الثورية وجب تناولها بعيدا عن سلطة الطابو.

هذا الأمر يجعل من الجميع عندما يبدأ حسن الحسني في بداية الفيلم بالسرد، وكأنهم في زمن الحكاية يندمجون مع الحدث كأنهم يعيشونها بكل تفاصيلها.

وبالإجابة عن هذه التساؤلات تبدأ عملية التفسير، ويأخذ العنوان مؤوّلتة، وهذا ما يدفع بنا إلى وضع إستراتيجية تساعدنا على دراسة سيمياء العنوان من زوايا نراها مهمة، كونها تساهم في تسليط الضوء عليه من خلال الفعل التواصل الذي يقوم به

يخطئ من يعتقد أن العنوان في النص الدرامي "أبواب الصمت" هو قبة إضافية، أو زينة ملحقة بجسم مكتمل جاز له الاستغناء عنها، بل إنه يمثل جزءا حيويا مهما من النص، ويجعل منه تمثيلا صلبا للدلالة، فكأنه الدال والنص هو المدلول أو العكس فيكون النص دالا والعنوان مدلول.

ومن هنا نجد العنوان يتميز بتعدد مستوياته، فعلى مستوى التواصل، نحن إزاء رسالة Message يمكن تفكيك تراكيبها، هل أبواب الصمت حدث يحمل التحدي وتكسير الخوف من ماضي و تاريخ يراه البعض غير شريف؟، أم أن هذه المغامرات الصادرة عن البكوش رجل أبكم لم يجد إلا إياها ليثور على واقعه، من دون أكثرات للنتائج باعتباره رقم غير مهم في البناء الاجتماعي؟، وبذلك نحن أمام نوع من أنواع الانحطاط والانحدار في مستوى الوعي المؤلّد للأناية وعدم احترام الموضوعية التاريخية.

هذه التساؤلات التي يطرحها القارئ، تمثل وظيفة العنوان، كونه ينطوي على سر النص ومفتاحه، وكذا توجهات صاحبه و مقاصده.

وبناء على ما ذكر، فإن "أبواب الصمت" كعنوان، يمكن أن يكون خطابا سياسيا يصلح لأن يكون وثيقة مؤرخة لفصول اللاوعي، التي اعترت الجماهير الجزائرية بعد الثورة نتيجة توجه سياسي محدد، فكان الوطن هو الضحية، لكن ألا يكون هذا العنوان جمع ما لا يجمع من صور تحمل فعل التضاد من خلال إلحاق الصمت السياسي لبلد عظيم ربما حاول البعض التنكر لتضحيات بعض أبنائه أثناء الثورة لأسباب أيديولوجيا أو دينية بأبواب قد تفتح للمتلقين القدرة على البحث فيما يبدو لنا مخفيا بصورة سلبية نتيجة محاولة تقديس الفعل الثوري بطريقة خاصة؟.

مقومات العنوان و تفاعلاته الكيميائية:

يتضمن العنوان "أبواب الصمت" وحدتين معجميتين، حين نحلل كل وحدة منهما نجد أن أبواب الصمت من الناحية اللغوية تطلق على الأفعال التي لا يتوقع أصحابها ما يترتب عنها، فإذا كانت حسنة ظفر أصحابها وإن حدث العكس تحملوا مآلها، فالريح والخسارة سواء.

فالصمت من حيث الدلالة رذيلة في العموم، ولا يصبح فضيلة إلا حين يعجز الإنسان على القول. والصمت لا يدل على الحكمة دائما، بل قد يخفي حمقا لا مثيل له، فكثير من الناس يصمتون ليس لحكمتهم، وإنما لخوفهم من افتضاح جهلهم، أو لكسلهم الثقافي.. الصمت بهذه الطريقة موثّ والكلام يصبح حياة.

فأبواب الصمت **ports de silence** هي تلك المخاطرة أو الرحلة أو التجربة الخطرة عبر التاريخ و التي

حاول عمار العسكري جعل العنوان ديناميكيا في فعله فمن خلاله يتم فعل الحركة لدى الأطراف الفاعلة في سيرورة الأحداث في النص، فالبكوش -وبعد انكسار النفسي الذي أصابه أمام حيف وظلم المستعمر في حق عائلته وشرفها - لا يجد إلا زوجة القائد العسكري وسيلة يجبر بها حاله، ويعني هذا أن البكوش مغامر رغم فعل الإرادة الذي قام به ما هو إلا مفعولا به. هذا الأمر هو علامة يحمل مؤولها علامة دلالية مفادها أن التمرد و قيام بأفعال قد تحدم الفكرة إلا أنّها لا تتفق مع الفكر الاجتماعي المرتبط بكل ماهو أخلاقي لا يكون إيجابيا في ظل نظام اجتماعي وسياسي المحافظ وإن خدم صاحبه.

وعلى أساس هذا الشرح، فإن النواة الدلالية المسماة في العنوان ذي الضلعين المتضادين تجعل المتلقي يسأل ما الذي يجمع الأبواب رمز المادية القائمة على القانون المتواضع عليه مع أبجدية البكوش الفاقد للحرية والتمرد على الأعراف ، وكيف بالمقابل نجد تماسكا بين معجمية الصمت الدال على الحكمة والذكاء، مع معجمية الأبواب بصفته الفاعلية القائمة على جبر الكسر ؟.

وبناء على ذلك تكون العلاقة بين ضلعي العنوان قائمة على احتمالين هما على النحو التالي:

$$1 \text{ (أبواب) } + 2 \text{ (الصمت) } = \text{إيجاب}$$

$$1 \text{ (أبواب) } + 2 \text{ (الصمت) } = \text{سلب}$$

ومن خلال هذه العملية نجد أن الضلعين 1, 2, إذا توافرت تُحدث التكامل المرجو ، ولكن بمجرد معرفتنا بالشخصية الرئيسة البكوش وهو الانسان الفاقد للحرية أو الانسان الفاقد للقدرة على تبليغ الحقائق كونه أبكم فإنه

يصبح كمادة اليود الكاشفة للون التركيبية القائمة في المجتمع المتخلف وهو الأنانية.

الملاحظة الأخرى الواجب التنبيه إليها هي أنّ هذا التركيب في العنوان قائم على الجملة الاسمية (مما يوفر الاقتصاد في العنوان و يساهم في بروز وظيفته التعيينية أو وظيفة التسمية)¹³.

والملاحظة الأخرى تمثلت في أنّ عنوان أبواب الصمت جاء معرّفا بالإضافة (مما فتح باب التأويل والتفسير لدى المتلقي بصورة واسعة ومن دون تحديد لمجال قد يحصر تفكيره)¹⁴؛ ورغم أنّ وحدتين المعجميتين جسدتا المفارقة بين خطين متوازيين مجموعة التقاطع بينهما خالية عند الدلالة، لكنهما عند الدمج غلب أحدهما الآخر ومن هنا فإنّ المتلقي عند القراءة يذهب مباشرة إلى حالة من التنافر ونوع من القسوة التي يحسها بسبب جمع ما لا يجمع .

وكخلاصة لسيمياء العنوان فإن تركيب العنوان يحدث له فعل اعتصار الدلالة المولدة والمساهمة في استثمار المعاني التي تحرك العقل الواعي والنظر المدقق، مما سمح للمخرج عمار العسكري من تجهيز أجواء الفعل الدرامي وجعل مجاريه تلتئم في مكان محدد.

الهوامش:

1. بشرى البستاني، قراءات في الشعر الحديث، دار الكتاب، بيروت، 2002، ص:34.
2. عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، مديرية الثقافة سطيف، 2000، ص:64.
3. Leo HHook- la marque du titre-p05
4. شادية شقرون، سيمياء العنوان في ديوان مقام البوح لعبد الله العشي، الملتقى الوطني الأول للسيمياء بسكرة، 2002، منشورات الجامعة، ص:286.
5. بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة الأردنية، ط1، 2001، ص:37.
6. المرجع نفسه، ص ن
7. جزار جينيت ، عتبات، تر:ع الحق بلعابد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص:67.
8. عبد القادر رحيم، علم العنونة، منشورات الجامعة، بسكرة، الجزائر، 2008، ص:56.
9. بسام قطوس، سيمياء العنوان، ص:60.
10. ع القادر رحيم، علم العنونة، ص:61.
11. شعيب خليف، هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، 2005، ص:36.
12. المرجع نفسه
13. محمد عويس، العنوان في الأدب العربي النشأة و التطور، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة، ص:36.
14. شعيب خليف، هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، ص:37.